الفصل الثالث

منهج الإمام محمد عبده الإصلاحى لقضايا المرأة ودوافعه

كانت نقطة البداية فى المنهج الإصلاحى للإمام محمد عبده فى التماس العلاج لوهن المجتمع الفكرى هى التحرير الكامل لركنى المجتمع الرجل والمرأة معا لكونهما لبنة المجتمع، بينما كانت أوضاع المرأة تقتضى الاهتمام بها أكثر لسوء تلك الأوضاع أكثر مما كانت عليه أوضاع الرجل.

ظهرت دعوة الإمام محمد عبده الإصلاحية فى زمن التغيرات السياسية والاجتماعية للمجتمع المصرى خاصة والإسلامى عامة، إذ شهد زمنه تطورات متتالية وأحداثا متسارعة سواء سياسية أو اجتماعية أو فكرية غيرت النمط السلوكى والفكرى لأفراد المجتمع، حيث اتجه المجتمع نحو التغير لمواكبة الحضارة الغربية من خلال نخبة من المثقفين الذين تم بعثهم للدراسة فى أوربا ثم العودة لبدء نهضة فكرية واجتماعية جديدة كان منهم رفاعة الطهطاوى الذى أكد على أهمية تعليم البنات وأثر ذلك فى تطوير المجتمع وتقدمه.

وكان المنهج الذى اتبعه محمد عبده فى تحرير المرأة المصرية والمسلمة هو عدم التقليد الأعمى للغرب، فحذر الإمام محمد عبده من بداية مسيرته الإصلاحية من تقليد الغرب والأخذ عنهم دون تمحيص أو تدقيق لما يؤخذ عنهم، فكتب مقالات تحت عنوان «خطأ العقلاء»[1]، يحذر فيها

من الوقوع فى التقليد الأعمى دون تبصر أو روية، ويحث على التمسك بالأخلاق والعادات الإسلامية مع مراعاة التطور الذى طرأ على عادات المسلمين، يقول الإمام منكرا على من اقتبس من الغرب عاداتهم وأفكارهم التى لا تناسب المسلمين ظنا منهم أنها السبيل للخلاص من الواقع الذى يعيشه المسلمون وابتعادهم: (واأسفاه! لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه، أما الدين نفسه فقد انقلب فى عقل المسلم وصفه، وتغيرت فى مداركه طبعه، وتبدلت فى فهمه حقيقته، وانطمست فى نظره طريقته وحق فيه قول على كرم الله وجهه: (إن هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا)... وقد دخل على المسلم فى دينه ما ليس منه وتسرب فى عقائده من حيث لا يشعر، ما لا يتصل بأصلها، بل يهدم قواعدها. ويأتى على أسسها)[٢].

كما كان منهج الإمام محمد عبده فى حديثه عن المرأة المسلمة بالحديث الضمنى لمنهجه الإصلاحى وليس بالدعوى الصريحة سواء فى مقال أو خطبة، ولم يخرج حديثه عن المرأة عن الناحية الشرعية والاجتماعية نظرا لما يتطلبه الحديث عن إصلاح المجتمع، فالمرأة نصف المجتمع فلابد من تعليمها ووضع القوانين التى تصون كرامتها الإنسانية وحقوقها الاجتماعية سواء فى بيتها أو مجتمعها. لذلك لم يكتب عن المرأة وحدها أو يشير من خلال كتاباته إلى قضية المرأة مستقلة عن المنهج الإصلاحى باعتبارها قضية منفردة بذاتها. بل كان تناوله لقضايا المرأة جزءا من منظومته الإصلاحية للمجتمع بشقيه الرجل والمرأة.

كذلك انتهج الإمام محمد عبده منهج الوسطية فى حديثه عن حقوق

المـرأة فلم تكن دعوى الإمام محمد عبده تجـاه قضية المرأة دعوة غربية الاتجـاه بل كانت دعـوة متوازنة إلى مواكبة الغـرب فى حضارتهم مع الحفاظ على قواعد الشـريعة الإسلامية وما فرضته على المرأة من أحكام لابـد من تطبيقها، ولـذا تطلق على دعوة الإمام بالوسـطية فلا مقاطعة للحضارة الغربية، كما أن دعوته ليسـت دعوة إلى تغريب المرأة المسـلمة عن دينها ومجتمعها بل نأخذ من الحضارة ما لا يضر بديننا ويتناسـب مع شريعتنا السمحة.

ورغم هذه الدعوى الوسـطية للإمام محمـد عبده فقد حظى بنصيب وافر من التهم[٣]، فى دعوته للإصلاح، ونسـبت إليه جذور فكرة تحرير المـرأة ذات الاتجاه التغريبى، واتهم بأنـه أراد لها الخروج عند دينها والاقتداء بالغـرب متخذا من الأميرة نازلى هانم التى كانت تعقد صالونا للرجال تخالطهم فى مجلسـهم وتشاركهم حواراتهم نظرا لتمتعها بالعلم والفطنـة نموذجا للمرأة المصرية التى عمل الإمام على استنسـاخها فى المجتمع المسلم[٤].

ومن الأسـباب التى دفعت الإمام محمـد عبده للاهتمام بقضايا المرأة الأحوال السياسـية والاجتماعية والاقتصادية فكانت حافزا لتبنى الإمام الفكر الإسـلامى التجديدى الذى يرتكز على أصول الشـريعة الإسلامية الثابتـة مع الدعوة إلى فتـح باب الاجتهاد العقلى لإيجاد حل لما حدث فى الحياة الاجتماعية فى فكرها وأنظمتها تتبع بالضرورة الخلل الفكرى الذى يعانى منه المجتمع المسـلم فى ذلك الوقت، وليكمل ما بدأه رائد من رواد الفكر فى ذلك الوقت رفاعة الطهطاوى الذى يمثل مرحلة بداية

تطـور الفكر الثقافى المصرى عامة، كذلك يمثـل النواة الأولى للدعوة إلى تغيير أوضاع المرأة المصرية والمسـلمة بالدعـوة إلى تعليمها وتهيئة فرص العمل لها أسوة بالرجل.

فمع جمود الفكر وسـيطرة الجهل، سـاد التقليـد والتعقيد معا على أذهان المسـلمين فأدى إلى فهـم خاطئ للعقيدة الإسـلامية وأحكامها، وحظيت المرأة المسلمة بنصيب الأسد من هذا التخلف والجمود، وفقدت كثيرا مما شرع الإسلام لها من مكانة وحقوق تميزت بها عن باقى نساء العالم منذ فجر الإسـلام إلى وقتنا الحاضر، وعاد النفور والتذمر والضيق بولادة الأنثى إلى الظهور فى المجتمع.

إذ إن أى تدهـور اقتصادى يتبعه فسـاد اجتماعى وأخلاقى، لذلك فالتحكم الاقتصادى يتبعـه ضمنا التحكم الاجتماعى وبالتالى فإن انفراد الرجل بتأمين المورد الاقتصادى للأسـرة يؤدى إلى إطلاق سـلطته ورأيه فى الأسـرة دون تحاور أو تشاور مع أفرادها، فالمرأة بالنسبة له مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة يقتصر وجودها على خدمة الرجل الذى يقع عليـه العبء الاقتصادى بالإضافة إلى الحذر واليقظة المطلوبة منه لرعاية ومراقبة نساء الأسرة والحيلولة دون فسادهن[٥].

وبذلك تعود الجاهلية الأولى للانتشار فى المجتمع العربى والإسلامى وتحـرم المرأة من حق التربية السـليمة والتعليم الصحيح بسـبب الفهم الخاطئ لشـرائع الدين وتعاليمه فكان لابد من صيحة حق توقظ عقول المسـلمين الغافلـة عن الديـن الصحيح وتميز بين ما هـو من الدين وما أدخل عليه من العادات الخاطئة التى شابت السلوك الإسلامى وضللت

العقول عن الطريق المستقيم الذى رسمه الإسلام لأتباعه رجالا ونساء، وقد شارك الإمام محمد عبده فى الصيحة التى أيقظت المسلمين من غفلتهم قرونا عديدة[٦].

قد شغلت قضية المرأة ووضعها أذهان من يمكن اعتبارهم النخبة الثقافية فى مصر منذ نهاية القرن التاسع عشر. وحتى لا يختلط الأمر بصددها يجب التأكيد منذ البداية على أن أقصى ما كانت تطالب به هذه النخبة بوجه عام هو التخلص من بعض الأفكار التى أحاطت بحياة المرأة ودورها فى المجتمع. فقد تركزت الدعوة حول إقرار حق التعليم لها (الابتدائى فقط) كما جاء فى كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين[٧]، وفى الكشف عن الوجه واليدين وتطوير الحجاب دون إلغائه، واستنكار تحكم الرجل فى أحوال المرأة الشخصية. وموقف الإمام من هذه المسألة أنه اتفق مع الذين تصدوا لها على النحو السابق الإشارة إليه، وأسهم بدور كبير فى التأكيد على هذه المعانى من خلال كتاباته عن الزواج والطلاق والحجاب وتعليم البنات، ومن خلال مشاركته فى إعداد كتاب تحرير المرأة ١٨٩٩م[٨].

ومن المفكرين الذى عقدت لهم أعمالهم الفكرية وجهودهم العملية لواء القيادات لمسيرة النهضة والبعث والإحياء التى بدأتها شعوب الشرق فى القرن التاسع عشر، فكانوا نقطة البدء الأولى والحقيقية والعملاقة فى ذلك التجديد الذى ميز حياتنا الحديثة والمعاصرة عن تلك التى عاشها الشرق فى ظل حكم المماليك والأتراك العثمانيين، هو رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣م) الذى كان نافذة الشرق على الغرب،

وحدد الصلات الفكريـة بينهما، ولم يقف أمام حضارة الغرب العملاقة موقـف المأخوذ الناقـل المقلد، بل موقف من يختـار، ويمزج مختاراته بتراث الشـرق وواقعه. فسـلط الأضواء على الديمقراطيـة البورجوازية، والدستور، والمؤسسات النيابية، وتقييد الحكومات بالقانون، وأبرز دور الجماهير (العامة) فى الثورة على الملوك المستبدين[٩].

كما أعطى واحدا من أهم أعماله الفكرية لقضية المرأة الشرقية، فطالب لها بالعلـم، والعمل، وأن تلحق بركب الحياة وتواكب الرجل فى طرق باب المسـتقبل. وقدم فكر الغرب فى هذا الميدان موصولا بتراث الشـرق النقـى المتقدم، ففتح باب الحركة ولـوح بالأمل أمام نصف المجتمعات الشرقية التى كانت مهملة تماما ومعطلة بالكلية فى ذلك الحين[١٠].

بينمـا مثل الاتجاه التجديدى التغريبى – ويعـد أحد تلاميذ الإمام محمـد عبده – قاسـم أمين الذى أخذ على عاتقـه قضية تحرير المرأة، ورأى أن سـبيل الإصـلاح إنما يكـون بإصلاح المـرأة وأحوالها الفكرية والاجتماعيـة، فقد نظر قاسـم أمين فـى العيوب والآفـات التى يرزح المجتمع المصرى تحت عبئها، فوجد أن مرجع ذلك إلى أن نصف الأمة قد انتابه الشلل التام فى الحياة الاجتماعية، شلل سببه الجهل والتأخر اللـذان قيـدت بهما المرأة عندنا، وحرص قاسـم أمين على أن يبين أن الإسلام – خلافا للوهم الشائع – لم ينظر للمرأة نظرة مهانة أو زراية، بل رفع من قدرها وأعلى من شأنها، وإذا كانت المرأة قد عانت شيئا من المظالم فى المجتمع الإسلامى، فليس الإسلام فى بساطته الأولى بمسئول عن ذلك، وإنما المسلمون فى العهود الأخيرة هم وحدهم المسئولون[١١].

وأخذ الأستاذ الإمام محمد عبده عن الأفغانى منهج الإصلاح الدينى كسبيل لتجديد حياة الشرق والشرقيين، وقدم بهذا المنهج بناء فكريا مكتمل القسمات، وواصل رسالة رفاعة الطهطاوى فى تقدير المرأة وضرورة تحريرها بالعلم، وتخليصها من القيود التى قيدت بها خطأ باسم الدين. وتبنى الفكر الاجتماعى المتقدم، عندما انطلق من منطق العصر واحتياجاته إلى النظر فى تراث الإسلام الاجتماعى والاقتصادى بعقل واع وأفق مستنير[١٢].

بينما كان موقف الشيخ محمد رشيد رضا من قضية المرأة تكملة لما بدأه أستاذه الإمام محمد عبده إلا أن الإمام كان مكتفيا بتفسير الآيات القرآنية التى تحدثت عن النساء عامة ومن خلالها أبرز أفكاره الإصلاحية، بينما الشيخ محمد رشيد رضا وضحها فى كتاباته عن المرأة، ودافع عما كتبه قاسم أمين فى كتابه تحرير المرأة معتذرا عن سوء فهم المسلمين لما قصده قاسم أمين فى حديثه عن الحجاب والاختلاط، بينما محمد رشيد رضا ابتعد عن الخوض فيما خاض فيه قاسم أمين[١٣].

□□□

هوامش الفصل

(١) كتبهـا الإمام محمد عبده فـى الوقائع المصرية علـى التوالى العدد ١٠٧٩ – ٤ أبريـل ١٨٨١م، ثم العدد ١٠٨٢ – ٧ أبريل ثم العدد ١٠٩٢م – ١٩ أبريل من العام نفسه.

(٢) محمـد عبده – الأعمال الكاملة – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٣ صـ٣٤٣.

(٣) انظر: د. محمد محمد حسنين – الإسلام والحضارة الغربية – مكة المكرمة – ط ٩– ١٩٩٣م.

(٤) د. السـيد أحمد فـرج – المؤامرة على المرأة المسـلمة تاريخ ووثائق – دار الوفـاء للطباعة – المنصـورة – ط ١ – ١٩٨٥م – صـ ٥٢، وأيضا: د. إجلال خليفة – الحركة النسـائية الحديثة. صـ ٢٧: ٣٠.

(٥) د. محروس سـيد مرسـى – الفكر الإسلامى وتربية المرأة فى القرن التاسع عشر – دار المعارف (بدون تاريخ) – صـ ١٠٠.

(٦) فـرج بـن رمضان – قضية المرأة فى فكـر النهضة – دار الحوار – سوريا – ط ٢ – ١٩٨٩م – صـ ١٨.

(٧) يقـول د. محمـد عمارة: والرأى الذى أؤمـن به هو أن هذا الكتاب جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين،

وأن فى هـذا الكتاب عدة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين ثم صاغ الأستاذ الإمام الكتاب صياغة نهائية بحيث جاء أسلوبه على نمط واحد هو أقرب إلى أسلوب محمد عبده منه إلى أسلوب قاسم أمين. وقد استدل د. عمارة على رأيه السابق بعدة أدلة منها:

(أ) أن الأبحاث الدينية التى وردت فى كتاب تحرير المرأة متطابقة فى الأفكار مع ما نشره الإمام فى الوقائع المصرية فى بداية عمله السياسى ١٨٨١م، والقارئ لمقالات الإمام فى قضية تعدد الزوجات يرى مدى التطابق فى الفكر والأسلوب.

(ب) موقف الإمام من الكتاب بعد صدوره، فقد أيده ودافع عنه بطريق غير مباشر ...

(جـ) كثرة الاقتباسات المأخوذة من أمهات الكتب فى الفقة الإسلامى والتى يرى د. محمد عمارة أن ثقافة قاسم أمين لم تبلغ حتى مجرد معرفة أسمائها فضلا عن الاستشهاد بها.. انظر: محمد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق د. محمد عمارة – ج١ – صـ٢٦١: ٢٧١.

(٨) عبد العاطى محمد أحمد – الفكر السياسى للإمام محمد عبده – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٨م – صـ١٧٧.

(٩) رفاعة الطهطاوى تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ــ انظر: الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى – تحقيق: د. محمد عمارة ــ طبعة بيروت ــ ١٩٧٣م.

(١٠) زفاعة الطهطاوى المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين ـ انظر فى ج٢ من المصدر السابق ـــ وانظر: الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى تحقيق: د.محمد عمارة ـ ج١ـ صـ ٢٠١-٢٢١,١١-

(١١) د.عاطف العراقى الشيخ الإمام محمد عبده والتنوير ـ قرن من الزمان على وفاته ـ دار الرشاد ـ القاهرة ـ ط ١ـ ٢٠٠٧م ـ صـ ٢٩٤.

(١٢) محمد عبده ـ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ـ تحقيق: د.محمد عمارة ـ ج١ـ فى تفسير القرآن ـ صـ ١٤.

(١٣) د. أحمد فهد بركات الشوابكة ـ محمد رشيد رضا و دوره فى الحياة الفكرية و السياسية ـ دار عمار للنشر والتوزيع ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٩٨٩م ـ صـ ١٤٩وما بعدها.

□□□